تخليه الكامل عن الدراسة الأسلوبية التقليدية التي لاحظنا أنها كانت تختفي تـدريجياً عنـد نقاد الروايـة الذين تبنـوا المنهج الاجتمـاعي. فلقد تبين لهم أن دراسـة الأسلوب المباشـر للغة الروائية لا تفيد شيئـاً في فَهْم هذا البنـاء الفني المختلف عن طبيعة الشعر. وإذا كان «الخطيب» لا يناقش مباشرة هذه المسألة فهو مـع ذلك يتبنى المـوقف نفسه ضمنيـاً عندمـا يلغي الدراسة الأسلوبية بشكل تام.

وميزة أخرى نجدها في كتابه «الرواية والواقع» وهي ندرة الأحكام القيميـة[139]، وهو مـا يمكن تفسيره بالرغبة في تحقيق قدر من الموضوعية في دراسـة الفن الروائي. وإن كنـا قد لاحـظنا بـأن الدراسـة ظلت أسيرة جـانب آخر يقف دون هـذه الموضـوعية، وهـو الانتماء الإديولوجي المباشر.

5 ـ اختبار الصحة:

درجنا على اعتبار مبـدأ اختبار الصحـة كأداة في يـد الناقـد الروائي، ونـاقد النقـد على السواء. واختبار الصحة كما تبينت ذلك «جوهانا ناتالي» ـ وهي التي تبنينا وجهة نظرها في الخطوات المتحكمة في كل عملية نقدية(*) ـ يقضي بالنسبة للناقد الأول أن يضـع مقاييسـه على محك الإختبار. فإذا طبق هذه المقـاييس على نموذج واحـد، فإنـه لكي يبرهن على صحة وشموليـة تصوره، عليـه أن يختبر المقـاييس نفسها على نصـوص أخرى حتى تثبت فعاليتها الإجرائية.

وبإمكاننا أن نلاحظ بسهولة أن «محمد كامل الخطيب» في عمله الذي ندرسـه لم يلجأ إلى هذا الاختبار، مثلما لم يلجأ إليه جميع نقاد الرواية من أصحاب المنهـج الاجتماعي. إذ يقتصر في أغلب الحالات على قياس النصوص المدروسة على نموذج مرجعيٍّ مُؤَمْثَـلٍ idialisé من طرف الناقد نفسه، **ولهذا يفقد اختبار الصحة قيمتـه العلمية لأنـه يُستخدم في نـطاق هيمنة معـطيات مقبـولة سلفـاً من طرف النـاقد، ولا يعتبـرها أبـداً موضـع نقـاش. والقضيـة شبيهة ـ في نـظرنا ـ إلى حـد كبير بـرجل الـلاهـوت الـذي يستخـدم العقـل في الاجتهاد في نطاق اللاّهوت نفسه.**

أما نحن فقد درجنا على استخدام اختبار الصحة، في النـظر إلى العمل النقـدي ذاته، متسائلين عن درجة الإنسجام فيه؟ ألا تُخِلّ التناقضات الكثيرة بالوحدة العضوية فيـه؟ هل

---

(139) هناك مثالان عن حكم القيمة في الدراسة، يثيران الانتبـاه، ص 62. وكذلـك في ، ص 96. الأول متعلق بما سماه الناقد «خطأ في رسم الشخصية» والثاني متعلق بوصف الـرواية بـأنها «تسيـر بنجاح في الطريق الذي بدأه فلوبير».

(*) أنظر ما قلناه في مقدمة عملنا هذا بشأن ضوابط التحليل.